حرب يوغرطة ودورها في بزوغ نجم القائد ماريوس الرجل الجديد في روما

أ/ عمر بوصبيع/قسم العلوم الإنسانية/ جامعة الشهيد حمه لخضر/ الوادي

ملخص:

عرفت روما منذ نهاية القرن الثاني ق م وبداية القرن الأول ق م أخطارا خارجية عجز قادة الجيوش من النبلاء على التغلب عليها وتمثلت تلك الأخطار تحديدا في حرب يوغرطة في إفريقيا وكذا محاربة قبائل الكمبري والتوتون الجرمانية المنهمرة على إيطاليا من الشمال، في تلك الظروف سنحت الفرصة لرجل من من طبقة الفرسان يدعى كايوس ماريوس (Caius Marius) ليبدي قدرة على قيادة الجيش وأفكارا جديدة حول تنظيمه وكيفية الانخراط فيه. ونظرا للنجاح الذي حققه في حرب يوغرطة استطاع الوصول إلى منصب القنصل في روما وتم التجديد له وإعادة انتخابه مرات متتالية ليواصل حربه ضد قبائل الكمبري (Cimbri) والتوتون (TEUTONS) شمال إيطاليا التي سرعان ما أنهاها وانتصر فيها. وقد عرف ماريوس بلقب الرجل الجديد في روما لكونه لا ينتمي إلى طبقة النبلاء ولا إلى الحزب الارستقراطي المهيمن على مقاليد السياسة في روما بل كان يناصر الشعبيين وطبقة العامة لذلك فتح الصراع من جديد بين العامة والنبلاء ليتحول من صراع سياسي إلى حروب أهلية خلال القرن الأخير من عمر الجمهورية الرومانية.

The abstract:

Since the end of the 2 nd century BC, Rome had known external dangers even the armies' noble leaders couldn't got overcome .These threats were represented

specially in Africa with Yugurtha's war as well as the fighting against the Germanic tribes - Cimbri and Teutons – which flowing out at the north of Italy . In those conditions, a knight man called Caius Marius had got the opportunity to show a capability of leading the army and also new ideas about army's organization and how to engage in it. As a result to his success in Yugurtha's war, Caius Marius was able to reach the post of consul in Rome and he was re-elected many times to continue his war against the tribes of Cimbri and the Teutons in northern Italy, which quickly ended and won. Caius Marius was named in Rome as The New Man, because he wasn't belong to nobles or to aristocratic party which was dominated on politics in Rome. He was a supporter the public class, so he opened again the conflict between the public and the nobility to turn from political conflict to civil wars during the last century of The Roman Republic's era.

مقـدمـة:

لطالما سيطر النبلاء الرومان على المشهد السياسي والعسكري في روما من خلال استفرادهم بالمناصب السياسية العليا وكذا المسؤوليات القيادية في الحروب والتحديات الكبرى، وقد استطاع هؤلاء النبلاء تحقيق انتصارات عسكرية مهمة ومكاسب ثمينة لصالح الجمهورية الرومانية، وتجلت تلك الانتصارات في السيطرة على شبه الجزيرة الإيطالية بين 509 و265 ق م ، وكذا التوسع خارج رقعة إيطاليا بين

264 ق م و 146 ق م بعد ضم كل من جزيرة صقلية، وأجزاء من بلاد اليونان وآسيا الصغرى وكذا تدمير قرطاجة والاستيلاء عليها. إلا أنه بعد تلك الانتصارات المهمة وقف النبلاء عاجزين أمام تحد كبير فرضه عليهم يوغرطة (Jugurtha) ملك نوميديا من خلال محاربته لهم وصموده في وجههم لوقوفهم حائلا أمام طموحاته في بناء مملكة قوية وربما التخلص من الوجود الروماني في شمال إفريقيا بعد وضع أيديهم على مملكة قرطاجة.

ومن خلال فشل القادة النبلاء في إنهاء حرب يوغرطة واتهامهم بالرشوة والتواطؤ مع ملك نوميديا حسب المؤرخ الروماني سالوستيوس (Salluste)، فتح المجال واسعا لماريوس (Marius) الرجل الجديد في روما الذي لا ينتمي إلى طبقة النبلاء ولا إلى الحزب الأرستقراطي لتكون هذه الحرب وإنهائه لها سببا في حصوله على منصب قنصل (Consule) لروما لعدة سنوات متتالية، فمن هو هذا الرجل الذي لقب بالرجل الجديد في روما؟ وكيف استطاع إنهاء حرب يوغرطة والانتصار على هذا الملك النوميدي الثائر؟ وكيف كافأه الرومان على هذا الصنيع، وهل شكل انتهاء حرب يوغرطة نهاية لذلك الصراع القديم بين النبلاء والعامة أم زاده حدة واشتعالا من خلال انتصار ماريوس لحزبه الشعبي على حساب الحزب الأرستقراطي المهيمن على مجلس الشيوخ لعدة قرون خلت؟

1- الوضع في كل من روما ونوميديا غداة انلاع حرب يوغرطة

كان المشهد في روما أواخر القرن الثاني ق م يوصف بالمضطرب داخليا خاصة بعد الأحداث العنيفة والدامية التي تخلص من خلالها مجلس السيناتو(Senatus) والقنصل لوكيوس أوبيميوس(Lucius Opimius) من دعاة الإصلاح كايوس

جراكوس (Caius Gracchus) وفيلفيوس فلاكوس (Fulvius Flaccus)[1]. وفي تلك الأثناء كان الخطر يهدد الجمهورية من الخارج حيث كانت جيوشها المرابطة في الحدود و كذلك خارج الجمهورية تتصدى لهجمات الشعوب المجاورة ، واضطرت تلك الجيوش إلى التوغل شمالا إلى ماوراء الألب لمواجهة شعوب السالوقي (les Salluviens) والليغوري (Les Ligures) و الأرفرني (Les Arvernes) في المنطقة المسماة بلاد الغال الجنوبية والممتدة بين جبال الألب إلى البيرينية . ومن أجل تأمين سلامة الطريق الذي يصل إسبانيا بشبه الجزيرة الإيطالية ذهبت تلك الجيوش إلى احتلال جزر الباليار والقضاء على خطر القراصنة [2] .

لكن الخطر الأكبر في نظر الرومان والذي تعلق بكرامة أكبر دولة في منطقة البحر المتوسط آنذاك هو تلك الحرب التي فرضها عليهم ذلك الثائر النوميدي يوغرطة الطامح إلى تحرير بلده من التدخل الأجنبي الذي أصبح ومنذ عدة عقود أمرا معتادا في شمال إفريقيا، حيث أنه ومنذ الحرب البونية الثانية عُقِدَ حلف بين الرومان بقيادة سيكبيو(Scipion) الذي سمي بالأفريقي (L'Africain) والملك ماسينيسا (Massinissa) الذي صار حاكما لنوميديا من حدود قرطاجة سابقا في الشرق إلى موريطانيا غربا و ذلك بعد هزيمة حنبعل (Hannipal)والقبض على حليفة سفاقص(Syphax) في موقعة زاما سنة 202 ق م. لكنه ولأهمية إفريقيا بشكل عام ونوميديا بشكل خاص كانت الأوضاع السياسية في مملكة نوميديا من اهتمامات الحكم في روما ، هذا بالإضافة إلى الحركة التجارية القوية والمصالح الاقتصادية الهامة التي تربط البلدين، والذي نتج عنها وجود جالية كبيرة من الإيطاليين والرومان في المدن النوميدية . كل هذا جعل من روما تلعب دور الحكم الوصي في كل خلاف أو مشكلة تقع في نوميديا، ورغم استقرار الأوضاع في عهد كل من الملكين ماسينيسا الذي توفي

سنة 149 ق م وميكبسا (Micipsa) من بعده، لم يلاحظ أي تدخل روماني سافر في الحياة السياسية النوميدية فيما عدا العلاقات الحسنة التي وصلت إلى حد التعاون العسكري، ففي حرب نوماس سنة 133 ق م ،كان النوميديون يقاتلون فيها جنبا إلى جنب مع الرومان بقيادة سكيبيو إيميليانوس(Scipion Emilien) والتي أبلى فيها يوغرطة إبن أخ الملك ميكبسا بلاء حسنا . إلا أن الرسالة التي بعث بها سكيبيو إلى الملك ميكبسا يوصيه فيها بابن أخيه يوغرطة و يثني فيها عليه لما شهده منه من شجاعة وبراعة و إقدام في الحرب . تلك الرسالة تشير بشكل واضح إلى تدخل روماني في أمور الحكم النوميدي ومما يزيد في تأكيد الأمرهو امتثال الملك ميكبسا لطلب سكيبيو إيميليانوس من خلال تبني يوغرطة كولد له وإشراكه في الحكم مع ولديه أذربعل (Adherbal) وهيمصال (Hiempsal) من خلال وصية أقرها سنوات قبل موته. نقول هذا رغم أن مصدر هذه المعلومات هو المؤرخ الروماني سالوستيوس الذي كان قد سبق وأن أشار أن الملك ميكبسا كان مضطرا لإشراك يوغرطة في الحكم مع ولديه نظرا لشعبيته العالية بين النوميديين ولذكائه، وتواضعه معهم و إتقانه فنون الحرب والقتال وعدم تعلقه برفاهية العيش في البلاط الملكي ، وما إرسال الملك له لحرب النوماس (Numance) إلا من أجل تعريضه للأخطار عساه يلقي حتفه هناك[3].

بعد وفاة ميكبسا كان من المفروض أن تقسم أعباء الحكم بين الأمراء الثلاثة لكن طموح يوغرطة في إقامة مملكة نوميدية قوية جعله يجنح إلى الاستفراد بالسلطة وعدم إشراك أميرين ضعيفين يدينان بالولاء للرومان ويريان أنهما يحكمان باسم الدولة الرومانية في إفريقيا ، وهو ما جاء في مرافعة الملك أذربعل أمام مجلس الشيوخ حين ذهب يشتكي للرومان ظلم يوغرطة وقتله لأخيه هيمصال، حيث أنه وحسب رواية

سالوستيوس فإن يوغرطة وبعد إنهاء مراسم التنصيب للأمراء الثلاثة، حرض أنصاره و أوعز لهم بقتل إبن عمه هيمصال وهو ما فعلوه ، لذلك التجأ أذربعل إلى روما مرافعا أمام مجلس شيوخها من أجل إنصافه ومقدما لهم فروض الولاء والطاعة على أن يُخَلِصُوهُ من غريمه و ابن عمه يوغرطة. لكن هذا الأخير ومن خلال معاشرته للرومان في حرب نومانس تعلم منهم أنه في روما كل شيء يمكن أن يباع أو يشترى لذلك أرسل موفديه إلى هناك محملين بالهدايا والأموال و أغدق على كل من يمكن أن يخدمه في هذا الشأن من السيناتورات و أعضاء مجلس الشيوخ لتجنب أي حكم يكون في غير صالحه [4]، وكان الأمر كما يشتهي يوغرطة حيث قرر مجلس الشيوخ إيفاد لجنة من عشرة أعضاء لتقسيم المملكة بين أذربعل و ابن عمه يوغرطة، تلك اللجنة التي وصلت إلى نوميديا سنة 116 ق م برئاسة القنصل السابق لوكيوس أوبيميوس الذي حرض الرومان من النبلاء والفرسان على قتل كايوس جراكوس وفيليثيوس فلاكوس ، و قررت تلك اللجنة تقسيم المملكة إلى قسمين ومنح القسم الغربي المحاذي لمكلة موريطانيا للملك يوغرطه أما الجزء الشرقي المحاذي للمقاطعة الإفريقية فكان من نصيب أذربعل [5].

لم يكن يوغرطة صاحب الطموح الكبير في حكم مملكة نوميديا كاملة لا بنصفها، ليرضى بالوضع الراهن وبدأ التحرش بابن عمه و بمملكته من خلال اختراق حدودها والسطو على القطعان وحرق المنازل و أخذ الكثير من الأسرى، وأمام تلك الوضعية لم يجد أذربعل من حل سوى الاستعداد لحرب يوغرطة، و لكونه يعلم أنه لم يكن في مقدوره الانتصار عليه راسل روما لإيجاد حل لمشكلته ، هذه الأخيرة التي أمرت الطرفين بوضع السلاح و الاحتكام إلى العقل من أجل فض نزاعهم، و في الوقت الذي كان فيه موفدو روما يستعدون للإبحار من نوميديا للعودة إلى إيطاليا كان

الحديث في مملكة يوغرطة عن حصار سيرتا (Cirta)وعن الحرب ،غير أن يوغرطة أبلغهم أن كل شيء سيكون كما يشتهي السيناتو، و ما إن ذهب مبعوثو السيناتو حتى أحكم يوغرطة حصاره على سيرتا بإحاطتها بالخنادق و بث العيون حولها ليلا ونهارا لمنع أي نجدة عنها أو خروج أي رسل منها باتجاه روما. و رغم ذلك استطاع أذربعل التوصل إلى السيناتو برسالة يدعو الرومان فيها لنجدته مذكرا إياهم بخصال أبيه ميكبسا تجاههم وتعاونه معهم وكذلك بجده ماسينيسا وصداقته لهم[6].

2- يوغرطة يقتل ابن عمه أذربعل وروما تعلن الحرب عليه

حين قرأت الرسالة في مجلس الشيوخ طلب بعض السيناتورات ذهاب الجيش فورا إلى هناك و وضع يوغرطة تحت طائلة القانون غير أن أنصاره في المجلس منعوا ذلك وقرر المجلس إرسال وفد آخر إلى نوميديا كان من بينهم م.سكاوروس (M.Scaourus)، ذلك الوفد الذي أبحر إلى إفريقيا طالبا من يوغرطة ملاقاته في المقاطعة الرومانية (قرطاجة سابقا) وتم اللقاء ولم يستطيعوا إقناعه بشيء أو انتزاع أي موافقة منه على شيء. و بعد ورود أنباء السفارة إلى سيرتا، شعر الإيطاليون فيها ببعض الاطمئنان و أشاروا على أذربعل أن يذهب إلى يوغرطة ويطلب منه حياته فقط و أنهم سينهون الأمر مع السيناتو ونزل عند رأيهم و ذهب إلى ابن عمه غير أن يوغرطة قتله تحت التعذيب و أمر جنوده بقتل كل نوميدي بالغ كان يوالي أذربعل وكذا رجال الأعمال الإيطاليين. لكن حين علم الرومان بما فعله يوغرطة حاول أنصاره من النبلاء إطالة الأمر قبل اتخاذ قرار ضده وإبقاء الغموض حول القضية، غير أن النقيب ك. موميوس هيج العامة و أبلغهم أن هنالك من النبلاء من يتستر على جرائم يوغرطة و أضطر السيناتو خوفا من الشعب إلى تعيين احد قنصلي سنة 111 ق م وهو

كالبيرينوس بستيا (Calpurnius Bestia) كقائد للجيش الخارج لمواجهة يوغرطة و رصد كذلك مقدارا من المال كمصاريف لتلك الحرب. حاول يوغرطة استدراك الأمر بأن أرسل ولده و اثنين من أصدقائه إلى روما ليحاولوا إصلاح الوضع لكن السيناتو رفض الموافقة على دخولهم إلاّ إذا كانوا قادمين لوضع يوغرطة وممكلته تحت طائلة القانون مما دفع بهم إلى العودة . وبذلك أبحر كالبيرينوس بستيا آخذا معه مجموعة من الإشراف على رأسهم م.سكاوروس إلى إفريقيا و لم يتأخر في مهاجمة نوميديا و الإستيلاء على بعض مدنها و أسر الكثير من النوميد[7].

لم يكن الأمر صعبا على يوغرطة في أن يتوصل إلى إتفاق مع القنصل بسيتا و من معه من النبلاء وذلك حسب سالوستيوس الذي يرجع الأمر إلى جشع وطمع هذه الطبقة التي كانت مستعدة للتنازل عن كل شيء مقابل المال وتم عقد الصلح بين الطرفين على أن تُرْفَعَ الحرب عن نوميديا ويدفع يوغرطه للرومان بثلاثين فيلا مع أعداد كبيرة من الماشية والجياد ومبلغ قليل من المال. لم يعد في مجالس روما و شوارعها من حديث سوى ما فعله بستيا وسكاوروس مع يوغرطة، و شعر النبلاء بالسخط و القلق من هذا التهاون ولم يتوان ميميوس نقيب العامة في إثارة أفراد هذه الطبقة وتهييجهم ضد هذا الصلح داعيا إياهم إلى الانتقام لمن قتل في نوميديا من الإيطاليين والرفض لحرية يوغرطة. قام ميميوس بإلقاء خطاب على العامة متحاملا فيه على النبلاء و شيوخ السيناتو الذين بيدهم السلطة والذين يفرطون كما يشاؤون في حقوق الرومان، مذكرا إياهم بما فعلوه بتيبيريوس جراكوس وأخيه كايوس و فيليقيوس فلاكوس و الكثيرين من أنصارهم من قتل وتشريد ومصادرة، داعيا العامة إلى عدم السكوت عما فعله كالبيرينوس بسيتا دون التحقيق فيه و معاقبة المقصرين من النبلاء. تمكن ميميوس من إقناع الشعب بضرورة تكليف البريتور كاسيوس (Cassius) لإحضار يوغرطة مع

إعطائه الأمان ليدلي بشهادته من أجل فضح سكاوروس الذي اتهمه ببيع ذمته ليوغرطة[8].

فور وصول يوغرطة إلى روما عمل على استمالة أحد تربيونات العامة و اسمه : ك.بيبيوس C.Bebius وحين عقد المجلس و خطب ميميوس في النبلاء والعامة مذكرا بما كان من يوغرطة من أفعال بشعة في حق أبناء عمه تاركا له باب العفو والصفح مواربا إن قَدَّمَ اعترافات عما قام به مع الضباط و القادة الرومان. وحين طلب ميميوس من يوغرطة التكلم و الرد أمر التربيون بيبيوس الملك بالسكوت و المحافظة على صمته، ورغم سخط العامة من ذلك الموقف و تهديدهم له من خلال نظراتهم وصيحاتهم إلا أنه ثبت على موقفه. وأثناء إقامته في روما قام يوغرطة بتدبير مؤامرة لقتل إبن عم له يدعى ماسيڤا(Massiva) إبن غلوسا(Gulussa) الذي كان قد اصطف إلى جانب أذربعل إبان محاصرة الملك لسيرتا، وحين كُشِفَ أمره و ثبتت عليه تهمة قتله، طلب منه السيناتو مغادرة روما و الالتحاق بمملكته والاستعداد لحربهم التي سيستأنفونها ضده. كان قنصل سنة 110 ق م بوستيميوس ألبينوس (A.Postumius Albinus)متلهفا لدفع الأمير النوميدي ماسيڤا للمطالبة بحقه في حكم نوميديا كونه حفيد ماسينيسا و أجدر بحكمهما من يوغرطة الذي ثبت عند الرومان جرمه، ولكن فِعْلَةَ يوغرطة قطعت عليه الطريق فكان هو القائد للجيش الخارج إلى نوميديا للظفر بيوغرطة قبل حلول موعد الإنتخابات ، وبما أنه كان متعجلا في الذهاب إلى نوميديا و متعجلا كذلك في النصر على يوغرطة أرخى له هذا الأخير الحبال و مكنه من الاستيلاء على بعض المناطق في نوميديا و تجنب المواجهة معه لإطالة الحرب و اختيار الفرصة المناسبة للقضاء عليه. لكن ألبينوس سرعان ما عاد إلى روما لإدارة الانتخابات هناك وترك على رأس الجيش في إفريقيا أخاه أولوس

(Aulus) الذي استطاع يوغرطة استدراجه بسهولة في عز الشتاء إلى مكان و حاصره فيه و لم يستطع الجيش الروماني النفاذ من ذلك الحصار إلا بشروط مهينة من يوغرطة[9].

لم تقبل روما تلك الشروط التي فرضها يوغرطة على أولوس قائد الجيش و أسند ت قيادة الجيش إلى كاوسيليوس ميتيلوس (Coeciluis Metellus) ، أحد قنصلي عام 109ق م وكان أحد الأشراف الذين يتمتعون بنفوذ كبير في ذلك الوقت. أبحر ميتيلوس إلى إفريقيا وقام بكل الاستعدادات اللازمة ،حيث أعاد تهيئة الجيش بعد الانكسارات التي تعرض لها وكذلك بعث روح التنظيم في المعسكر من خلال إعادة تنظيمه ومنع بعض السلوكات وفرض العمل على الجند من أجل استعادة لياقتهم. عندما سمع يوغرطة باستعدادات ميتيلوس بعث له برسل عارضا عليه السلم وطالبا منه العفو، لكن ميتيلوس رفض عروض الملك و أصر على القبض عليه حيا و إن تحتم الأمر الظفر به ميتا. وبعد عدة أيام دخل نوميديا و أخذ يتوغل في أرضها التي لا يعرف دروبها ولا مسالكها. لم يتوقف يوغرطة عن إرسال مبعوثي السلام لميتيلوس متظاهرا بالضعف والانكسار لكنه، لم يتأخر عن مفاجأته من خلال نصب الكمائن و إرهاقه بحرب عصابات لا تنتهي دون إعطائه فرصة مواجهته وجها لوجه. و مر الوقت الطويل ولم يستطع ميتيلوس و ضباطه الإيقاع بالملك عن طريق الحرب، وبدأ يفكر في قتله أو الإيقاع به عن طريق الحيلة من خلال استمالة بعض مساعديه حيث نجح في استدعاء بوملكار ساعد يوغرطة الأيمن محاولا إقناعه أن بتسليم ملكه و مغريا إياه بعطاء جزيل من روما.[10]

3- تعيين ماريوس على رأس الجيش بعد فشل القادة الآخرين في هزيمة يوغرطة

لم ينجح ميتيلوس في مسعاه ذاك من خلال شراء ذمه بوملكان لأن يوغرطة تفطن للأمر و قتله ، لكنه في نفس الوقت نجح في إحداث شرخ على مستوى قياد جيش يوغرطة الذي لم يعد يثق في ضباطه و مساعديه و تَمَلَّكَهُ الشك في كل من حوله. في تلك الأثناء كان العامة والفرسان في روما يتحينون الفرصة للوثوب من جديد على سطوة النبلاء، فالأمر بينهم و منذ أيام تيبيريوس وكايوس جراكوس سجال و كانت انكسارات النبلاء و فضائحهم و فسادهم و عدم قدرتهم على إنهاء حرب يوغرطة قد جعل صوت العامة يعلوا من جديد، و مما زاد الأمر تعقيدا بالنسبة للأشراف و حزب السيناتو هو وجود ضابط لامع فتي في جيش ميتيلوس يدعى **كايوس ماريوس C.Marius** ينحدر من طبقة الفرسان وكان حاقدا على الحزب الأرستقراطي كونهم كانوا يرون فيه رجلا جديدا لا ينحدر من عائلة نبيلة كما كان شأن القناصل في روما و أصحاب المناصب السامية في الدولة و حتى الضباط الكبار في الجيش وقادة الحملات[11].

ينحدر ماريوس (157-86ق م)من أسرة إيطالية تنتمي لطبقة الفرسان من مدينة أربينومَ (Arpinum) حيث ولد ونشأ فيها، وهي مدينة تقع على بعد حوالي 60 ميلا جنوب شرقي روما في حوض نهر ليريس[12]. تدرب منذ صغره على الأعمال العسكرية و أهمل تعلم اللغة اليونانية و هي لغة الخطابة عند الرومان[13] شارك في بداية مشواره الحربي في حصار نومانس تحت قيادة سيكيبيو الإيميلي والذي تنبأ له بالبزوغ والظهور عل منافسيه في المستقبل بل تنبأ بأن يخلفه في قيادة جيوش روما. وصل ماريوس إلى منصب الكويستور سنة 121 ق م وفي سنة 119 ق م أنتخب تريبونيا للعامة حيث أظهر استقلالا في الرأي و تمكن من سن قوانين تضعف من هيمنة النبلاء في المحاكمات، كما عرض على المجلس قانونا لتوزيع القمح على

العامة وهو ما زاد من تعلقهم به . طلب ماريوس **الأيدلية** الكبرى ، ولم يحصل عليها فطلب الأيدلية الصغرى وهي أيدلية العامة و حصل عليها سنة 115 ق م ،و بوصفه بريتورا بديلا إستطاع إخماد ثورة بعض القبائل الإسبانية سنة 114 ق م[14].

مما زاد في علو شأن ماريوس هو زواجه من جوليا (Julia) من بيت قيصر التي كانت مشهورة بين النبلاء في روما وهي في نفس الوقت عمة يوليوس قيصر (Jules César) الذي صار فيما بعد أكثر الرومان شأنا. حين كلف ميتيلوس بقيادة حرب يوغرطة أخذ معه ماريوس من بين الضباط المساعدين له . كان ماريوس يرى قائده غير كفء لتلك المهمة، و كان يرى في نفسه الرجل الأكفأ و لهذا لم يعمل على إنجاح تلك المهمة و كان سلوكه مع الجنود رائعا حيث كان يصبر كما يصبرون و يتحمل الجوع و الألم و الأعمال الشاقة و يقاسمهم المأكل و المبيت مما قربه من جنوده ، فطار خبره في روما و اقتنع العامة أنه لا انتصار على يوغرطة دون انتخاب ماريوس قنصلا يكلف بتلك الحملة[15].

طلب ماريوس من قائده ميتيلوس سنة 108 ق م عطلة للذهاب إلى روما من أجل الترشح للقنصلية و متابعة شؤون الدعاية الانتخابية هناك، لكن ميتيلوس رفض وسخر منه مما زاد في حقد ماريوس عليه فعمل على إثارة الجنود وتأليبهم ضده [16] لذلك سمح له بالرحيل . أبحر ماريوس إلى روما عن طريق ميناء أوتيكا (Utique) و استطاع إلقاء خطاب أمام الشعب حيث رافع ضد إسناد قيادة الحملة لميتيلوس و تعهد بقتل يوغرطة أو الإتيان به حيا إن كُلِّفَ بتلك الحرب [17]. أنتخب ماريوس قنصلا لسنة 107ق م بمساندة الفرسان و العامة و طلب أحد نقباء العامة و هو مانيلوس مانيكيوس (T.Manilus Manicius) بالمصادقة على مشروع

تقدم به أمام الجمعية لإسناد الحملة الإفريقية إلى ماريوس ورضخ السيناتو لمشيئة الشعب [18].

لقد تمكن ميتيلوس في آخر أيام قيادته لحرب يوغرطة من الاستيلاء على عدة مدن و إلحاق الهزائم بالملك ، لكن يوغرطة استطاع الاستنجاد بالجيتول في الجنوب و عقد حلفا مع ملك موريطانيا بوخوس (Bocchus) والزواج من إبنته لتوثيق ذلك الحلف (رغم أن سالوستيوس قال أن الزواج عند النوميد والمورلا يمثل إلتزاما أو رابطة قوية) وكان الطرفان يستعدان لخوض معركة قوية قرب سيرتا لولا وصول خبر إسناد الحملة إلى ماريوس مما أضعف الروح المعنوية لميتيلوس. حاول ميتيلوس ثني بوخوس عن حِلْفِهِ مع يوغرطة داعيا إياه إلى عدم ربح عداوة روما ، بل على العكس يجب عليه أن يسعى إلى الانضمام إلى حلفائها، و مضى الوقت والسفارات تروح و ترجع بينهم ،و في تلك الأثناء كان ماريوس يجمع الجند في روما ويُقِّرُ القوانين التي تسمح له بذلك و يختار بنفسه من الحلفاء واللاتين المقاتلين الذين يعرفهم هو شخصيا و يشهد لهم بالشجاعة و البأس [19].

و قد سلك ماريوس مسلكا جديدا لم يعتده الرمان في طريقة التجنيد حيث فتح الباب للعامة للتجند في الجيش الأمر الذي كان يتطلب سابقا نصابا ماليا للانضمام للحملات الحربية. و بذلك يكون ماريوس أول من فتح باب التطوع للخدمة العسكرية و ذلك لتعبئة القوات اللازمة لحملاته [20]. ومع حلول سنة 107 ق م عبر ماريوس إلى نوميديا بعد تجهيز الفرق المساعدة في روما، و استلم قيادة الجيش من ميتيلوس، و بدأ حربه بأخذ المناطق الخصبة و المدن المهمة التي كان يرتكز عليها يوغرطة فكانت أولى المدن الكبرى مدينة كبسا (capsa) . كان ماريوس يضرب بقوة

مما زاد في فزع وخوف النوميد منه و كان يقسم الغنائم مع جنوده الشيء الذي قوى مكانته بين مقاتليه. ومع وصول التعزيزات من روما إلى القنصل ماريوس وصلت كوكبة من الفرسان على رأسهم رجل برتبة كويستور يسمى لوكيوس كورنيليوس سيلا (L.Cornelius Sylla)[21]، قال عنه سالوستيوس حين وصل إلى إفريقيا أنه لا يفقه شيئا من فنون القتال والحرب ولكنه كان يتعلم بسرعة وكان سلوكه مع المقاتلين وتصرفاته تجعلهم يتعلقون به ولكنه في وقت وجيز أبدى شجاعة و براعة منقطعة النظير[22]

خاض الحليفان الملك النوميدي يوغرطة و حليفه الموري بوخوس معارك ضارية ضد ماريوس لم يستطيعا فيها التغلب عليه بل تفوق عليهما، مما دفع بالملك بوخوس للتراجع إلى مملكته بعد أن أيقن أنه لا يمكنه الانتصار من خلال حلفه مع يوغرطة، وأرسل يطلب ود الرومان و توصل إلى السيناتو من خلال مبعوثين له و الذين ردوا عليه بالنظر في طلبه. وحين رجع ماريوس إلى سيرتا التي استولى عليها و انتزعها من يوغرطة عائدا من عمليات ملاحقة لهذا الأخير ، علم برسائل بوخوس إلى روما و قام بالتواصل معه وترغيبه في التخلي عن يوغرطة ، ورد بوخوس عليه بطلب التفاوض مع مساعده سيلا الذي سبق و أن أرسله ماريوس إليه، و ذهب إليه سيلا مع كوكبة من فرسان الرومان ونبالتهم و إجتاز بشجاعة نوميديا و المناطق التي كان يسيطر عليها يوغرطة و حين إقترب من موريطانيا وجد في إنتظاره ڤوليكس (Volux) ابن بوخوس الذي واصل معه الطريق إلى أن وصلوا إلى المكان الذي اختاره سيلا ليعسكر فيه[23].

4- ماريوس ينجح في الإيقاع بيوغرطة بعد خيانة بوخوس له

بدأ بوخوس يفاوض سيلا عن طريق نوميدي ينحدر من عائلة ماسينيسا يعيش عنده إسمه دادار(Dadar) حيث طلب الملك السلام مع روما متعهدا بعدم المشاركة في الحرب مع يوغرطة، وأنه كان يحارب من اعتدوا على أرضه و أنه مستعد أن لا يتجاوز حدود مملكته وهو وادي ملوشات (Mulucha) وأن لا يسمح ليوغرطة بتجاوزه غربا ، لكن سيلا رد عليه بقوله " أن روما لاشك ستنتصر لكنه إن أسدى لها خدمة صغيرة تصبح روما مدينة له بما يطلبه من أجزاء في نوميديا ، تلك الخدمة هي تسليم يوغرطة للرومان و الذي هو الآن تحت تصرفه وفي أرضه. رفض بوخوس فكرة تسليم يوغرطة في بادئ الأمر لكنه سرعان ما تراجع واتفق مع سيلا على السلام بينهما والمضي بما يراه مناسبا وأرسل في طلب يوغرطة مع أحد النوميد يسمى أسبار (Aspar) داعيا إياه إلى القدوم و التشاور معه وإمكانية تسليمه أحد نبلاء الرومان وهو سيلا . وبعد ثمانية أيام جاء يوغرطة و معه أهله ومرافقوه دون سلاح فقبض عليه وسلمه إلى سيلا و قتل من معه من مرافقين، و بهذا الإنجاز احتفل ماريوس بموكب نصره في روما في بداية سنة 104 ق م حيث وجد نفسه قد أنتخب للقنصلية في غيابه[24].

و بهذا إنتهت ثورة الملك يوغرطة الذي لم يزحف بجيشه على روما ليحاربها و لكنه أراد فقط أن يحكم بلده كما يريد هو كنوميدي حر وكما أراد النوميد أنفسهم أن يعيشوا في وطنهم دون تدخل الرومان الذين صاروا أمرا واقعا في إفريقيا. ويمكن القول أنه رغم قوة الجيش الروماني و إحكام تسليحة في ذلك الوقت و تنظيمه مقارنة بمحاربي النوميد من أبناء القبائل النوميدية و المورية و الجيتولية الغير منضوين في جيش منظم كما هو عند الرومان، إلا أن ماريوس لم يستطع التغلب على يوغرطة بالحرب و القتال و إنهاء الأمر معه كما ينتهي بين الفرسان، وانتصر عليه بالغدر و الخديعة و

الخيانة و هذا في عرف المحاربين نصر منقوص بل نصر يخالطه العار. أما بوخوس فقد ارتكب خطأ بل خطيئة لم يَجْنِ وبالها هو فقط بل جناه بعد سنوات كل المغاربة الذين أحتلت أرضهم و دخلت تحت الوصاية الرومانية أو الاحتلال الروماني المباشر بعد قرن ونصف من الزمان.

5- بروز خطر قبائل الكمبري والتوتون شمال إيطاليا بعد انتهاء حرب يوغرطة

وقبل أن ينتهي القرن الثاني قبل الميلاد كان ماريوس على موعد مع حرب جديدة وكان الرومان قد انتخبوه للقنصليه للمرة الثانية سنة 104 ق م أثناء غيابه في إفريقيا لقيادة الجيش وإخماد نارتلك الحرب التي تكاد تحرق إيطاليا كلها . وفي حقيقة الأمر فإن أحداث هذه الحرب مع الرومان تعود إلى سنة 113 ق م حيث تدفقت من الشمال قبائل جرمانيه الأصل بقيادة قبيلتي التوتون(Teutons) والكمبري (Cimbres) يدفعها الجوع والبحث عن الأراضي الخصبة . وزحفوا باتجاه إيطاليا كالسيل الجارف في عربات مغطاة وكانت أعدادهم تقارب الثلاث مئة الف من المحاربين معهم أزواجهم وأبناؤهم ودوابهم [25] .

واستطاعت تلك القبائل وبسهوله هزيمة القنصل كاربو (Cn.Papirius carbo) في إقليم كارينثا بالقرب من مدينة نوريا (Noreia) ومن حسن حظ روما أن أولئك الغزاة لم يواصلوا رحفهم نحو إيطاليا بل تابعوا طريقهم غربا عبر سويسرا، لكن هذه القبائل ظهرت سنة 109 ق م وراء جبال الألب الغربية في ولاية غالية الناربونية (Gallia narbonnsis) بالقرب من تولوسا (Tolosa)حيث هزمت جيشا رومانيا بقيادة القنصل سيلانوس (N.Junuis Silanus) كما إستطاعت

قبائل التيجوريني (Tigurini) هزيمة جيش يقوده القنصل كاسيوس لونجينيوس(L.cassius longienus) قنصل سنة 107ق م . و في سنة 105 حين كانت القوات الرومانية عائدة من مرسيليا نحو إيطاليا بقيادة القنصل مالليوس (Cn.Mellius Meximus) والبروالقنصل كاوبيو Q.Servilius (Caepio) أُجْبِرَتْ على خوض معركة ضد تلك القبائل عند أوراسيو (Aurassio) ومني الرمان بهزيمة فادحة [26] قتل فيها ثمانين ألفا من الجيوش الرومانية النظامية وأربعين ألفا من المدنيين الذين يتعقبون معسكرات الجنود [27].

ولكنهم و للمرة الثانية لم يزحفوا إلى إيطاليا واتجهوا غربا بحثا عن فتوحات أيسر وهو الأمر الذي ساعد ماريوس على الاستعداد لمحاربتهم آخذا الوقت الكافي في تدريب جيشه وتسليحه وتحسين أسلوب قتاله، فاتحا الباب مواربا أمام المتطوعين . وبذلك تحولت الخدمة العسكرية في عهد ماريوس من التزام نحو الدولة إلى شبه حرفه يتعيش منها أعداد كبيرة من الفقراء والعاطلين عن العمل ، وبذلك زادت أعداد المقاتلين الرومان ولم يعد المقاتلون بعد انتهاء الحملات يتوقون إلى تسريحهم بل أصبحوا يفضلون البقاء في الخدمة العسكرية تحت إمرة قائدهم الذي أصبح الجنود يدينون له بالولاء أكثر من ولائهم للدولة . أحرز ماريوس بعد تلك التغييرات التي أحدثها في الجيش نصرا باهرا ضد قبائل التوتون في أكواي سكستياي (Aquae Sextiae)وهي إكس آن بروڤانس الحالية بالقرب من مرسيليا في عام 102 ق م. كما ذهب لنجدة زميله في القنصلية لعام 102 ق م لوتاتيوس كاتولوس وانتصرا معا على قبائل الكمبري في ڤركلالي (vercellae)في حوض البو في الشمال الشرقي من إيطاليا ، وبذلك أنقذ ماريوس إيطاليا وروما من خطر أكيد كان يمكن أن يؤدي بروما إلى التهلكة [28].

الخلاصة:

ما يمكن استخلاصه في نهاية هذا البحث هو أن ماريوس المنحدر من طبقة الفرسان استطاع من خلال توظيف قدراته الشخصية وبمساعدة طبقة العوام في روما الوصول إلى قيادة الجيش، ومن ثم منصب القنصل مستفيدا في تلك الفترة من تخاذل القادة الرومان من النبلاء، ومن نقمة العامة عليهم وعلى أفراد طبقتهم خاصة بعد إفشالهم لمشاريع الإصلاح التي كانت يمكن أن تفتح على العوام وخاصة أولئك البطالين الذين امتلأت بهم شوارع روما فرصا كبيرة في الحصول على قطع أرضية للاستغلال الفلاحي داخل المستعمرات التي كان دعاة الإصلاح ينوون تأسيسها داخل إيطاليا وخارجها. غير أن اللافت للنظر في هذه الأحداث هو تلك الانتهازية التي طالما تعامل بها نبلاء الرومان مع أولئك المتطلعين للتغيير في روما حيث أنهم وافقوا تحت ضغط الشعب على وصول ماريوس لمنصب القنصل لعدة سنوات متتالية 104-100 ق م بعد قنصليته الأولى سنة 107 ق م وذلك بسبب تعرض الجمهورية لخطر الحروب الخارجية، حرب يوغرطة ثم حروب الكمبري والتوتون، وبمجرد زوال ذلك الخطر سنة 101 ق م وجد ماريوس صعوبة كبيرة من أجل انتخابه قنصلا لسنة 100 ق م.

والملاحظ هنا هو أن الانتهازية لم تكن من النبلاء فقط بل كانت أيضا من طرف العامة، تلك الطبقة التي سبق وأن غدرت بدعاة الإصلاح : تيبيريوس وأخوه كايوس جراكوس وكذا فيلفيوس فلاكوس. وبذلك عاد الصراع بين طبقات المجتمع الروماني وحزبيه الرئيسيين الأرستقراطي الذي يمثله النبلاء والديمقراطي الشعبي الذي يناصره العوام، ولكن هذه المرة اشتد الصراع وازداد ضراوة وعنفا فماريوس الذي ألف قيادة الجيوش وتقلد المناصب العليا في الدولة لم يكن ليرضى بالتنازل عن تلك

المكاسب خاصة بعد بزوغ نجم مساعده سيلا المتعصب لطبقة النبلاء وفوزه بالقنصلية لسنة 88 ق م الأمر الذي أدخل روما في مرحلة جديدة من الصراع وهي مرحلة الحروب الأهلية.

Appien, Guerres Civiles,Texte traduit par Combes-Dounous Imprimerie de frères Mames, Paris, 1808, I,24.

[1]

[2] هشام الصفدي ، تاريخ الرومان ، الجزء الأول، بيروت،1967، ص 227 .

[3] Salluste ,La Guerre de Jugurtha, Traduit par François Richard, Edition Garnier, Paris, 1844, 5,6,7,9,10.

[4] IBID , 14, 08, 13.

[5] عبد اللطيف احمد علي، التاريخ الروماني عصر الثورة من تيبريوس جراكوس إلى أكتافيوس أغسطس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ، ص 17.

[6] Salluste, OPCIT, 20 -24

[7] IBID,25 -28.

[8] IBID, 29-32.

[9] IBID, 33-35, 38.

[10] IBID,44-46, 56 , 61 .

[11] عبد اللطيف أحمد على ، المرجع السابق ، ص 49

[12] نفسه.

[13] Salluste,OPCIT,53.

[14] Plutarque ,Vies des Hommes Illustres, II, Marius, Traduit par Alexis Pieron, Imprimerie de Gustave GRATIOT , Paris, 1845, 393-395.

[15] IBID, 397-398

[16] عبد اللطيف أحمد على ، المرجع السابق، ص 50

[17] Plutarque, OPCIT,II, Marius ,399.

[18] عبد اللطيف أحمد على ، المرجع السابق ، ص 50

[19] Salluste, OPCIT, 80-84.

[20] عبد اللطيف أحمد على ، المرجع السابق، ص 54

[21] ينحدر سيلا من أسرة شريفة حيث أن أحد أسلافه و يدعى روفينيوس كان قنصلا، لكنه عاش مغمورا فقيرا . كان ميالا للهو والشهوة و المجون لكنه في نفس الوقت كان ذا طموح جارف نحو المجد و العظمة. كان متميزا في شجاعته و براعته السياسية الشيء الذي دفعه بقوة نحو المجد والحصول على القنصلية و قيادة الجيوش الرومانية ضد ميثريداتس بعد سنوات ومن ثم سيدا مطلقا لروما لسنوات عدة . ورغم نشأته الفقيرة إلا أنه أصبح المدافع الأول عن الأشراف و الحزب الأرستقراطي و خاض حربا شعواء ضد قائده ماريوس و أنصاره (Salluste, OPCIT, 95)

[22] IBID, 87,91,96

[23] IBID, 100-110.

[24] IBID ,100-110,111-114.

[25] ول وايرل ديورنت، قصة الحضارة، تلرجمة محمد بدران، الجزء الأول من المجلد الثالث، دار الجيل للطبع للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، ص 247 .

[26] عبد اللطيف أحمد على ، المرجع السابق، 53 .

[27] ول وايرل ديورنت ، المرجع السابق ، ص 247.

[28] عبد اللطيف احمد على ، المرجع السابق ص ص 56،55 .